

تقديم

اشتهر آدمون نطان ولد مخلوف يافيل — تلك الشخصية البارزة في الأوساط الفنية و الموسيقية للجزائر العاصمة — لدى هواة الموسيقى بصفة عامة و الموسيقى الأندلسية بصفة خاصة، بكتابه الضخم الجامع للأشعار المغناة في النوبات الأندلسية و المعروف بعنوانه المختصر "مجموع يافيل"¹.

و كتب بأسلوب الدارجة في المقدمة عن هدف نشره للديوان و عن بعض الممارسات لحاملي التراث الوطني " فقد طبعنا هذا الديوان لأننا رأينا هذا الفن الغناء و كلام الأندلس يفنون و ينقصون كل يوم. فكل الي الذي يتوفى ما يخلف عوضا عنه أحدا آخر يكون قرنه في هذا الفن و ما ذهب به في القبر من الكلام و الصنائع لا يعرفونها الباقون و لا يحفظونها. و لا يخفى عند الحاضرين و الغائبين بأنه في هذا الوقت كل والى في الألحان و الأغاني الذي يريد يتعلم لحنا من الألحان الذي يحتاج اله و ما يجده يمضي يطلبه من الي يكون عنده موجودا فلا يعطيه الا الي لا بالدرهم و لا بالابتهاالات لكي تبقى تلك الألحان مسجونة عنده و ما تبان عند الناس الاخرى اثره له. و لذلك اجمعنا اربعة عشر نوبة التي بقيت من كلام الأندلس و طبعناها و جعلنا بها دواوين الغناء. و كذلك حتى لحن من هذا الألحان ما يزول. أيضا ان الذي يحب هذا الفن و يكون عنده هذا الديوان يكسب كتابا نفيسا لا يوجد مثله ابدا و السلام² " (هكذا).

و ما يجهله الكثير من المهتمين بهذا التراث هو أن نفس المؤلف ترك لنا ديوان آخر أصغر حجما. و لكن صغر حجمه لا يمنعه بأن يكون مصدرا هاما لتاريخ الموسيقى و الغناء بالجزائر. هذا الكتيب المطبوع حجريا بعنوان "مجموع زهو الأنيس المختص بالتباسي و القوادس" نشر، كما صرح به، "على نمة صاحبه ادمون يافيل" سنة 1907/1325.

خلاف لـ"مجموع يافيل" الشهير الذي يضم كلام "الصنعة" و هي "الموسيقى الراقية العالمية"، يحتوي "مجموع زهو الأنيس" على جملة من نصوص الموسيقى الشعبية الجزائرية في أواخر القرن 19.

¹ و العنوان الكامل هو "مجموع الأغاني و الألحان من كلام الأندلس" طبع في الجزائر العاصمة سنة 1904/1322، ص.395+ص.31.

² أنظر مقدمة "مجموع الأغاني".

لنرجع للعنوان و لنشرح كلمات "التباسي" أي الأقراص (les disques) و " القوادس" أي الأسطوانات (les cylindres).³

كل مصطلح يشير هنا إلى مرحلة معيّنة من تطوّر تقنيات التسجيل. أوّل مرحلة بدأب سنة 1889 مع جهاز الغراموفون (le gramophone) و التسجيل العمودي (verticale la gravure) على الأسطوانات (les cylindres) و انتهت في فرنسا سنة 1912. و عقبها المرحلة الثانية بعد سنة 1904 و هي مرحلة التسجيل الجانبي (gravure latérale) على قرص 78 دورة و استعمال الفونوغراف ذات الفوهة (le phonographe à pavillon).⁴

و نستنتج من هذا العنوان أن يافيل نقل نصوص ديوانه عن طريق الأسطوانات و الأقراص التي كانت بحوزته. و الدليل على هذا أنه كلما عنون أغنية إلا و ذكر معها رقم التسجيل.

و لقد رتّب يافيل النصوص حسب الترتيب التالي:

- المصدر عربي و البطايحي
- الحوزي
- القصيدة
- الزنداني و الاستخبار
- القادرية

يلاحظ أن هذا الترتيب للأشكال المختلفة للموسيقى الشعبية يخضع لسلم تقييم فني. حيث في أسفل دراجته نجد أغاني النسوة (القادرية) و في أعلاها، بدون شك، سوف نجد الموسيقى العربية الأندلسية (الصنعة) متربعة على عرشها.

و بينهم قصائد تغنى في "المصدر⁵ عربي" و "البطايحي"⁶ و "الحوزي" و فن "القصيدة"، أربعة أنواع من الغناء بالشعر الزجلي أو الملحون باختلاف مصادره.

مرتبة تحت عنوان "المصدر عربي" نجد منظومة "من بيات يراعي الاحباب" للمفتي مصطفى بن الكبابي (1860/1769) المتوفى في منفاه بالقاهرة. يعد هذا النص من ملحون

³ و كلمة أسطوانة تعني أيضا القرص (le disque) في الاصطلاح العام.

⁴ شيخ المحقق أي شيخ القمع في الاصطلاح المحلي.

⁵ المصدر يفتح النوبة فهي أوّل حركة و تؤدى فيه مقطوعات صوتية.

⁶ البطايحي هي ثاني حركة في الترتيب الإقاعي للنوبة في الجزائر.

الطبقة الحضرية المثقفة الممثل في شخص الشاعر التلمساني سعيد المنداسي. و هو نوع من " الزجل المجزئ ".

ثم تليها نصوص في " البطايحي " ك " طال ذا السهر يان " لشاعر مجهول و " جرعت في الحب كاس المنيا " الذي ينسب⁷ إلى ابن الحاج قدور الشريف، عالم جزائري معاصر للمفتي بوقندورة.

ثم الفقرة المخصصة لنوع الحوزي و هو ضرب من النظم و الأداء ظهر في تلمسان و انتشر في حواضر البلاد و برز فيه شعراء من النوع "البدوي" و من النوع "الحضري"⁸ معا. و من نوع الحوزي القصيدة الشعبية المعروفة بـ "وحد الغزال ريت اليوم" ينسبها يافيل إلى قدور بن عثمان⁹ و لعلها من نظم الشاعر التلمساني بومدين بن سهلة¹⁰. و قصيدة السي مصطفى بن براهيم الشهيرة " الفيت انايا خودات " التي نظمها و هو في مدينة فاس بالمغرب. و ثلث قصائد للشاعر التلمساني الفحل بن مسايب " في المنام يا الاسيادي زارني الحبيب البارح " و " نار البين قُذات في كناني يا مسلمين " و " القلب بات سالي و الخاطر فارح ". و قصيدة لتلميذ المنداسي الشاعر أحمد بن تريكي " يا بنات البهجة كفو من الملام ". و تعتبر هذه القصيدة من أول قصائده. و له قصيدة أخرى نسبها يافيل إلى شاعر اسمه أحمد " غاب علي خيال موني " و هي فالحقيقة لبن تريكي هذا. أما القصيدة "طال الضر عليا و زاد ثاني غرامك" المعروفة عند أهل الملوف في قسنطينة بقصيدة " الظالمة " فهي لشاعر معسكر الكبير الحبيب بن فثون¹¹. و قصائد أخرى من الحوزي مجهولة المؤلف و لكنها ذو شهرة واسعة مثل " يا من تريد قتالي غيرك ما يحلالي " أو " هبّو رياح الارياح ".

بالإضافة إلى قصائد شعراء البلاد، تستورد الموسيقى الشعبية الجزائرية بعض النصوص من المغرب. و هذه النصوص مصنّفة تحت عنوان " قصيدة ". فنجد مثلا قصيدة بن عمر "

⁷ حسب شهادة الأستاذ أحمد سري.

⁸ حسب اللهجة الطاغية على الشاعر. "الحضري" لغتا ينطق بالقاف عموما و "البدوي" لغتا ينطق بالقاف المعقودة أي القاف (الجيم المصرية). و شاعر كإبن الذبّاح كان ينظم في النوعين الحضري و البدوي.

⁹ شاعر من مدينة معسكر ذو أصول تركية عاش في القرن التاسع عشر و له قصائد عديدة و متداولة. أنظر كتابنا "الأغنية البدوية الوهرانية".

¹⁰ أنظر " كتاب الحب و المحبوب"، لمحمد بخوشة، تلمسان، 1939؛ ديوان الشيخ التلمساني بومدين بن سهلة، لم.ح.حشلاف و م.بن ع. الزرهوني، الجزائر، 2001؛ ديوان أبي مدين بن سهلة، لش.مقتونيف، وهران، 2001.

¹¹ للتعريف عن الشعراء المذكورين هنا و أعمالهم، أنظر كتابنا " الدليل المأمون في مراجع الملحون" (guide bibliographique) نشره L'Harmattan سنة 1996 في باريس.

ثلاثة زهوة و مراحة¹² و قصيدة " كيف يواسي الي فرق محبويه " التي ينسبها يافيل خطأ إلى التهامي المدغري و هي من نظم سيدي قدور العلمي¹³.

فهذا النوع المسمى " القصيدة " و كذلك " الغربي " أو " المغربي " هو السلف الحقيقي لنوع غنائي جديد سوف يظهر قريبا و هو " الشعبي ".

أما النصوص الباقية فهي في الغالب من جنس الشعر و الغناء الشعبي الخفيف و غناء المناسبات و الشوارع ، سواء كانت من الزنداني¹⁴ ، و أغلبه تونسي، أم كانت من القادريات¹⁵ الخاصة بغناء النسوة في مجموعات "المسامعات".

و في الختام نقول أن " مجموع زهو الأنيس "، زيادة على أنه أنقذ من التلف عدد لا بأس به من نصوص شعرية و كلام غنائي منوع، يقدم لنا صورة مطابقة لما كانت عليه الأغنية الجزائرية — و الأغنية الشعبية بالخصوص، بجميع أنواعها، في حاضرة جزائرية و في القرن التاسع عشر— و يطلعنا كذلك على الحسّ الفنّي للأجيال السالفة و تصوّرهم لتسلسل الأنواع الغنائية على أساس درجة التصنّع الجمالي و القدرة على الصمود في وجه الدهر. و لهذا، كان علينا من الواجب أن نعيد نشره و أن ننوّه بأهميته الثقافية التاريخية و بمكانة مؤلفه المرموقة ضمن سلسلة الرجال الذين كتبوا التاريخ الثقافي لوطننا.

المؤلف:

هو آدمون نطان يافيل بن مخلوف. ولد بالجزائر العاصمة سنة 1874 من أسرة جزائرية يهودية. كان لوالده مخلوف الملقب بـ "مخلوف لوبية" مطعم شعبي في أسفل حيّ القصبة. و كان متحصلا، بشهادة تلميذه و صديقه محي الدين باش طارزي¹⁶، على البكلوريا و شهادة في اللغة العربية و كان موسيقيا. كان كما كتب عن نفسه "مولع في علم الأغاني و الألحان" حيث تتلمذ على المعلم الشيخ محمد سفينة (1844-1908) ثم شارك الباحث ج.رواني في أبحاثه حول الموسيقى العربية في شمال إفريقيا كمترجم و ناسخ. نشر سنة 1904 مجموعته للنوبات الأندلسية ثم أسس الجمعية الموسيقية "المطرية" سنة 1911 و في سنة 1918 التقى

¹² أنظر كتابنا " أغاني القصبة "(chansons de la Casbah)، ص.165.

¹³ أنظر " محمد الفاسي، معلمة الملحون، جزء 3، روائع الملحون، الرباط، 1990، ص.237-241".

¹⁴ نلاحظ هنا غياب نوع " العروبي " و ربما أغنية " من فراق غزالي " المصنفة في نوع " الزنداني التونسي " هي عندنا من نوع العروبي.

¹⁵ و تحت عنوان " بيت قادرية " أدرج يافيل رباعيات و منهم رباعية للمجنوب.

¹⁶ راجع: 1977. « Le vieil Alger musical » par Mahieddine Bachetarzi, in Jeunesse Action n°6, semaine du 1^{er} au 7 janvier

بتلميذه المفضل و خليفته محي الدين باش طارزي. شغل سنة 1922 كرسي أستاذ للموسيقى العربية في معهد الموسيقى عند تأسيسه من طرف النواب المسلمين المنتميين إلى قائمة الأمير خالد.

و سنة 1923 سلم منصبه على رأس "المطربية" إلى محي الدين باش طارزي. توفي يافيل في 8 أكتوبر 1928 و عمره 54 سنة.

لقد قام يافيل، بالإضافة إلى نشر المجموعين¹⁷ الذين دوّن فيهما جزء هاما من التراث الغنائي الجزائري، بتسجيل ما يزيد عن 2000 اسطوانة.

أحمد أمين دلاي

وهران 2007/02/10

¹⁷ أفادنا الأستاذ أحمد سرّي بأن يوجد كتاب ثالث ليافيل.